من «مُسلِمين» و«مَسيحيّين» إلى «مَسيحانيِّين» و«مُحمَّديِّين»: حين يَدعونا الأنبياءُ للارتِقاء إلى ما فوق الأديان

بروفسور دكتور. نجيب جورج عوض
باحث مشارك
مركز دراسات اللاهوت المقارن، جامعة بون، ألمانيا

تُعيِّدُ المَسيحيَّة كُل عامٍ الاحتفالَ بذِكرى ميلادِ يسوعِ المسيح. ومَعَها نعود لنسمع أخوتنا وأخواتنا المُسلِمين والمُسلِمات في المشرق العربيّ يتبادلون الآراء والمواقف حول ما إذا كان على المُسلِمين أن يُعايدوا المَسيحيِّين في هذه المناسبة، وأن يرسلوا لهم تحيّات وأمنيات وتَبريكات بمناسبةٍ لا يتفق فكر الإسلام الفقهيّ مع مَضمونها اللاهوتيّ ولا معناها الروحيّ. فذِكرى ميلاد يسوع الناصريّ، أو عيسى ابن مريم، تَعني أنَّ المسيحيّين يقولون بأنَّ لله «ولَد»، وأنَّ ولَد الله المزعوم قد جاءَ إلى العالم مَولوداً كطفلٍ من مَريمِ العذراء. وهذا، بالنسبةِ إلى الإسلامِ الفقهيّ والقرآنيّ، فيهِ كِفر وتجديف، إذ حاشا لله أن يكون لَهُ ولَد، فهو «لم يَلد ولم يولَد ولم يكن له كفؤاً أحد» (قر. ١١٢: ١-٤).

يكفي هنا أن أعود لتذكير أخوتي وأخواتي في الله الواحد، المسلمين الأعزّاء والمسلمات العزيزات، بأنَّ المسيحيّة، كما أدرك عُلماء الكلام المبكرون من المسلمين في القرنين الثاني والثالث للهجرة، لا يقولون إنَّ يسوع المسيح هو «ولد» الله، ولا يقولون إنَّ الله قد أنجَبَ ولداً من امرأة (أبو عيسى الورّاق، الجاحظ، القاضي عبد الجبّار، مثلاً). تقول المسيحيّة، كما يؤكّد علماء الكلام المسيحيّون العرب في حواراتهم وجدالاتهم الكلاميّة في العصر الإسلاميّ المبكر (ثاودوروس أبو قرّة، حبيب ابن خدمة أبي رائطة، عمار البصريّ، يحيى ابن عدي، قسطا بن لوقا وسواهم)، إنّ يسوع المسيح هو «كلمة الله وروحه»، كما يسمّيه القرآن الكريم، ويؤكّدون أنّ المولود من مريم العذراء كعيسى ابن مريم (الذي يفرد القرآن لولادته سورةً كاملة) هو «ابن» الله، وليس «وَلَدُه»، وهو ابنه من جانب الإكرام والترفيع (رفَّعه إليه، يقول القرآن في ٤:١٥٨؛) والعزّة والمرتبة، وهو عَدلُه لأنّه كَلمَتَه التي ألقاها إلى مريم (قر. ٤: ١٧١)، وكَلمَة الله «هي هو» كما يقول المتكلّمون المسلمون الأُوَل، وخاصّةً المعتزلة (واصل ابن عطاء وأبو الهذيل العلاف وثمامة ابن الأشرس والنظّام وسواهم). فإذاً، ذكرى ميلاد يسوع المسيح لا تتحدّث عن ميلاد «وَلَد» الله أو «طِفله» من امرأة بشريّة، بل تَتحدَّثُ لاهوتيّاً عن تَمثُّل كلمة الله وروحه في صورة بشر وسكنها في جسدٍ إنسانيّ كي تتواصل معنا. فكما أنَّ كلمة الله صارت قُرآناً مَتلوّاً (قِريانا، بالسريانية)، فإنَّ الكلمة الإلهيّة صارت جسداً بشريّاً في الفكر اللاهوتيّ المسيحيّ.

لكن، وبعيداً من التعاريج اللاهوتيّة والكلاميّة الخريستولوجيّة (سواءً المسيحيّة أو الإسلاميّة-القرآنيّة) لقِصَّة ميلاد يسوع المسيح/عيسى بن مريم، أعتقد أنّ هناك مغازي وعِبَرًا لاهوتيّةً ودينيّةً أعمق بكثير جدّاً من السَفسَطَة اللاهوتيّة السابقة الذِكر التي انشغل بها

متكلّمو المسيحيّة والإسلام في القرون المبكرة. هي مغازٍ وعِبَرٌ عميقة، ويمكننا التعلُّم منها بصرف النظر عن إيماننا الشخصيّ برسالة الإيمان المسيحيّة أو عدم إيماننا بها. وهي مغازٍ يمكن حتى للمسيحيّ الذي يفهم بعمق معنى أن يكون مسيحيّاً أن يتماهى بها ويتفاعل مع ذكرى ميلاد كلمة الله وروحه، الذي يقول عنه القرآن أن سلام عليه يوم يولدُ ويوم يموت ويوم يُبعثُ حيّاً (قر. ١٩: ١٢)، من دون أيّ مشكلة.

بالنسبة إليّ، ذِكرى ميلاد السيّد المسيح ليست عيداً مسيحيّاً، ولا هي مناسبة دينية تَخصُّ ديناً إبراهيمياً بعَينه. ذِكرى مَجيء المسيح بميلاده العذراويّ في صورة يسوع الإنسان هي ذِكرى مَولدِ الرمز العميق التاريخيّ والإنسانيّ اللاهوتيّ الذي أتّبعه في حياتي. لهذا أعتقد أنَّ اتِّباع المسيح يعني، في الحقيقة، أن نَصير «مَسيحانيّين» مِثله (Christ-like)، ولا يعني في عُمقه اللاهوتيّ أن نَصير بالضرورةِ، أو حتّى أن نكون، «مسيحيّين»، أي أن نتّبع ديناً اسمه الدين المسيحيّ. يسوع المسيح هو دعوة للعالم إلى السفر ما وراء الدين المسيحيّ، وإلى الارتقاء إلى ما فوق التديُّن المُقترَن بالمسيحيّة في ذاتها.

لم يكن يَسوع المسيح التاريخيّ «مَسيحيّاً»، بل كان مركز الدين المسيحيّ، الذي نشأ على قاعدة الإيمان برسالته واتِّباعِه، وموضوعه وجوهره. لو كان المَسيح «مسيحيّاً»، لكان، بهذا المعنى، يتّبع نفسه ويُمَحور حياته على ذاته، ولكانَ موضوعُ إيمانه وجوهرُه هو شخصه، أي إنَّه لكان عابداً لذاتِه، وهذه إحدى أنواع الوثنيّة، وفي الفكر المسيحيّ اللاهوتيّ هذا منبع فكرة «الخَطيئة الأصليَّة»، والتي تعني استبدال عِبادَة الله بعبَادَة الأنا. من جهة أخرى، لم يَكُن المسيح يَهوديّاً بمَعنى الانتماء إلى الديانة اليهوديّة المؤسَّسيّة الكهنوتيّة واتّباعها. فقد اعتبره ممثّلو التيّارات الدينيّة المُمثِّلَة للمؤسَّسة الدينيّة اليهوديّة مارِقاً في الدين ومُجدِّفاً عليه، حتّى إنّها قامت بتسليمه إلى السلطات الرومانيّة كي تحكم عليه بالإعدام صَلباً. ولم تَعتبر اليهوديّة يسوع المسيح مُمثِّلاً لأيّ خطاب دينيّ يَهوديّ تعتبره المؤسَّسة الدينيّة اليهوديّة خطاباً عقائديّاً أو مَرجعيّاً يُمثِّلها.

لَم يكن يسوع المسيح، إذاً، لا «مَسيحيّاً» ولا «يَهودياً» بالمعنى الدينيّ المؤسَّسيّ المَرجعيّ والتنظيميّ للكَلمَة. مضى يسوع المسيح إلى ما وراء الدين وارتقى إلى ما فوق الانتماء الدينيّ. وما كانت دعوته للناس إلى الانتباه إلى ملكوت السموات، لا إلى اتّباع دينٍ ما، سوى دعوته لهم إلى أن يُسافروا إلى ما وراء التديُّن، ويَرتقوا إلى ما يتخطّى منظومات الدين ومؤسّساته نحو العلاقة المباشرة والشخصيّة مع الله. يسوع المسيح، بالنسبة إليّ، هو دعوة للناس كي يصيروا «مسيحانيِّين»، كي يتماهوا بالذات الإلهيّة عبر التَمَسحُن في صورَةِ مَسيحانيَّةِ يَسوع المسيح. هو دعوةٌ لنا لنكون مَسيحانيّين، وليس بالضَرورة مَسيحيّين.

أزعم أنّ الحقيقة ذاتها تَتجسَّدُ أيضاً في النبيّ محمّد وعلاقته بالله. فالنبيّ محمّد أيضاً ما كان من أتباعِ دِين مُحدَّد هو «الدين الإسلاميّ» كما نعرفه تاريخيّاً بدءاً بالعصر الإسلاميّ المُبكِر. الإسلام كمَنظومة دينيّة مؤسَّسية نشأ وتأسَّس على قاعدة اعتبار النبيّ محمّد ورسالته مركز الدين الإسلاميّ وموضوعه وجوهره. أمّا النبيّ محمّد، فلم

يكن مُسلِماً بمعنى التبعيّة للديانة الإسلاميّة. لو كان كذلك، لكان شأنه شأن ما قُلناه عن يسوع المسيح، لكان مركز عبادته وموضوعها وجوهرها هو ذاته وشخصه، وهذا ليس سوى صورة من صور الكفر والوثنيّة. النبيّ محمّد لم يَعبُد ذاته ولم يَتّبع ذاته، بل عَبدَ الله الواحد الرحمن الرحيم وسَلَّم أو «أسلَمَ» له حياته كاملةً. لم يكن النبيّ محمّد بهذا المعنى مُسلِماً بالدين، بل كان «مُسلِّماً لله» بالإيمان. وهو، مثل يسوع المسيح، لم يَدعُ الناس إلى عبادته والتسليمِ له، بل دَعاهُم إلى عبادة الله والتَسليمِ له، أي إنّه، كما يبدو لي، دَعاهُم إلى السفَرِ وراءَ الدين وإلى الارتقاء إلى ما هو فَوقَ التَديُّن والانتماء الدينيّ المؤسَّسيّ والمَرجِعيّ.

سافرَ النبيّ مُحمّد في علاقته بالله وإيمانه به إلى ما وراء حالةِ الانتماءِ لدين ما، وارتقى في تَسليمِهِ لله، ولله وحده، إلى ما فوق الولاء الدينيّ واتّباع المؤسَّسة الدينيّة والمَرجعيّة التَديُّنيّة المُقترنة بالدين الإسلاميّ. سافرَ النبي مُحمّد نحوَ العلاقة الشَخصيّة والمباشرة بالخالقِ الرَحمَن الرَحيم. ولهذا تمثّل دَعوتُه رسالةً إيمانيّة تُلهمُ الناسَ لأن يَصيروا «مُحمَّديِّين» في تَسليمِهِم لله، وليس بالضرورة «مُسلمين» في الدين والانتماء الدينيّ.

كلٌّ من يَسوع المسيح والنبيّ مُحمّد هو دَعوة لاهوتيّة عَميقة جدّاً للإنسان كي يُسافر ما وراء الدين، ويرتقي إلى ما فوق الانتماء الدينيّ المؤسَّسيّ وأن يصير في حياته، وتَصير في علاقتها بالوجود، إمّا «مَسيحانيّةً» أو «مُحمَّديّة». من يقرأ تاريخ الدينين المَسيحيّ والإسلاميّ، يَلفته التشابه في العديد من مَناحي السَيرورة التاريخيّة في كِليهما. فكلّما ابتعدَ أتباعُ الدين المَسيحيّ عن أن يَكونوا «مَسيحانيّين» وانغمسوا في كونهم مُتَديّنين مَسيحيّين، كلّما انحرفت المَسيحيّة عن رسالة يسوع المسيح وعن تَجسيدِ مَسيَّانيّته. كذلك هو الأمر في تاريخ الإسلام: كلّما ابتعدَ اتباعُ الدين الإسلاميّ عن أن يكونوا «مُحمّديّين» وانغمَسوا في كونهم مُتديّنين إسلاميّين، كلّما انحرفَ الإسلام عن رسالة النبيّ مُحمّد وعن تجسيد التسليم المُحمّدي لله.

ذكرى ميلاد المسيح مثل ذكرى المَولِد النبويّ إن هما إلّا مناسبتان لنا لننظر إلى كلمة الله وروحه، من جهة، وإلى رسولِ الله وحاملِ قُرآنِهِ إلى العالم، من جهة أخرى، كصوت الله الصارخ في برّيّة كلٍّ من الدينين المَسيحيّ والإسلاميّ والداعي إيّانا إلى السفَر بعيداً وراءهما إلى واحاتِ الارتواءِ من مَعاني المعاني وعِبَرها وأعماقها، التي نَمذَجَها أمامنا كلّ من يسوع المسيح والنبيّ مُحمَّد في حياتهما الشخصيّة، الأوّل كمَسيَّا للوعد الإلهيّ الخلاصيّ، والثاني كرسول للوعد الإلهيّ التَسليمي. إنّ كلّاً من يَسوع ومُحمّد يدعونا إلى جعل الله، والله وحده، والعلاقة معه لُبّ التَديُّن والوعي الدينيّ وجوهرهما ومَوضوعهما وغايتهما ومُرتجاهما وأُفُقهما، هذا الذي يُعرِّف أتباعَ المَسيحيّة والإسلام أنفسهم به. في الكتاب المقدَّس المَسيحيّ، يقول الرسول بولس إنّ علينا أن نكون «في المسيح» (١كورنثوس ١٥: ٢٢؛ ٢كورنثوس ٥: ١٧؛ كولوسي ١: ٢٨)، ولا يقول إنّ علينا أن نكون في المَسيحيّة. في النصوص المَسيحيّة العَربيّة والسُريانيّة القديمة التي تعود إلى العهد العتيق المُتأخّر، وكذلك اللاتينيّة التي تعود إلى القرون الوسطى، يُسمّي المَسيحيّون المُسلمين بتسمية «مُحمّديّين» (mohammedans). وهم يفعلون ذلك على قاعدة مُقاربَتهم لاتّباع رسالة مُحمّد والتَمثُّل

بإسلامِهِ (Mohammed-like) مقاربةً تُماثِل مُقاربَتَهم وفهمَهم اللاهوتيّ لمَعنى أن تكونَ مَسيحيّاً، أي أن تتّبع رسالة المسيح وتتمثّل بمَسيحانيَّته (Christi-like). حين نعود إلى هذا الفهم العتيق والأقدم لكَلمَتَي «مَسيحيّ» و«مُسلِم»، يمكن لأيّ شخصٍ أن يحتفل بعيد ميلاد يسوع المسيح وبِعيدِ المَولد النَبَويّ على حدّ سواء، وأن يُعايدَ إخوته وأخواته وأن يتمنّى لهم الخَير في تلك المُناسبَتَين من دون أن يَمسّ هذا لا إسلاميّة المُحمّديّ ولا مَسيحيّة المَسيحانيّ.

ميلاد يَسوع المسيح والمَولد النَبَويّ هما مُناسبتان لنا جَميعاً كي نتلاقى مع ولادةِ رسالةِ التَمثّل بالمسيح ورسالةِ التَمثّل بالنبيّ. هي رسالةٌ لنا لنسافرَ خلفَ الأديان، ونَرتَقي إلى ما فوق «مَسيحيَّة» و«إسلام» لنصبحَ «مَسيحانيّين» و«مُحمّديّين». من هذا المُنطلَق، لا تعودُ ذِكرى مولد المسيح يَسوع أو مَولِد النبيّ مُحمّد ذكرى تُمثِّل عيداً مَسيحيّاً أو مُسلماً فقط وحصريّاً، بل تصبح مناسبةً لكلّ مَن يعبد رَبّ السموات والأرض للتقرّب إلى الله، إمّا بالتَمَسحُن الاتّضاعيّ على صورة يَسوعِ المَسيح وإمّا بالتَسليمِ التَواضعيّ على صورةِ النبيّ مُحمّد. أن تكونَ مَسيحيّاً حقّاً يَعني أن تكونَ «مَسيحانيّاً»، وأن تكون «مُسلِّماً» حَقّاً يعني أن تكون «مُحمّديّاً»، سواءً أكنتَ في المُحصِّلَة «مَسيحيّاً» أم لم تكن، وسواءً أكنت في المُحصِّلَة «مُسلِماً» أم لم تكن.